أهل زمان

بقلم : جاذبية صدقي

تأخر القطار . فاشتريت سمكة وقطعة جبن تأخر قرشين مني — قطعة جبن لا فرق بينها وبين ما يصنعون به مصابيد الفئران . قديمة ورائحتها نفاذة وتغطيها طبقة عنكبوتية خضراء . أخذتهما وجلست بهما على مقعد خشبي مهالك فوق أفريز المحطة . فجاءني يتشمم ... ويسكع .. ويحك جنبه برجلي . ويلسع قدمي بأربعة أنفه المبللة كلب أجرب يجر وراءه ساقا لا خير فيها . فقلت في سري

— « يا فتاح يا عليم ! » .

ودست السميدة تحت أبطن أخفيها بطرف ستراتي . أما الحبل فحياتها في جيبي . ما لي أنا ؟ أنا جوعان .

فرفع الى عينين دليلتين تطرقان بكل بؤس الدنيا وشقائها ، وهز ديله . أو حاول أن يهزه . فلما وجد أن ذلك مجهود فوق ما يحويه بدنه الهزيل من طاقة أطرق بانكسار . فملأني شفقة على ذلك المخلوق الذي انتهى أو كاد . لكني أنا الآخر انتهيت أو كدت . أربعون سنة وأنا أشقى .. وأتعب .. وأجري هنا وألهث هناك وراء لقمة عيش أسد بها أفواها سبعة وأنهم .. ثمانية

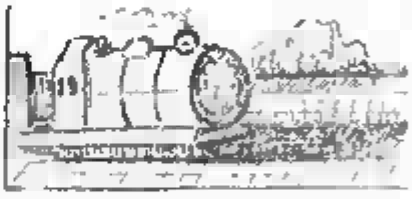

أفواه غير فمي أنا الذي كانت روحة أبي تشبهه بالسالوسة التي لا منيل لها . فهي لا تسد أبدا ... تشفط كل ما يأتي في دائرة عملها ـ وأنهد من ذلك بكثير . وكبر الأولاد : خمسة صبيان وبنتان . وحرصت على تعليم الصبيان حرفة والبنات شغل الابرة . وزوجتهم كلهم وجهزتهم ! البنات بجهاز وصيفة ... والصبيان بمهر . ولما اطمأننت عليهم كلهم في بيوتهم تنفست الصعداء وبركت كفى والفرحة ترعشني أنفي بينا من بيوت أولادي السبعة أعيش فيه بقية عمري بعد أن ماتت أم الأولاد . فهل رحب بي أحدهم ؟

هانذا على طوار المحطة .. في هلاهلي .. وسميدة وقطعة جبن عفنة تحت أبطي أقضم منها وآكل .. في انتظار قطار الصعيد الذي سيرحلني الى القاهرة . ماذا سأفعل هناك ؟ لا أدري . ومن حلقك . ابدأ من جديد .. على ما اعتقد . عمل جنوني ـ لا شك . من حاسي . عمل غير مضمون العاقبة ... وأنا أبو السبعين سنة أحملها على كتفين هما وعصا مقربت « القفاة » سوداء . ولكن ... ماذا كان في وسعي أن أفعل ؟ لم أعد مرغوبا في . استنفدت قواي ومالي ـ سبحان يحيي الخلق فيك . يحملانك ذا فائدة ما . أما أنا ... النهاية . تبدلني أولادي . ربما طلقت نساءك ورمتهم بالعقوق .. بل ربما لعنتهم . لا .. لا . لا تسرع . دعهم . ربما يفتح عليهم . هم يحاربون زمانهم . ومن لو أقرأت فيه جارك السلام لرماك بنظرة مريبة .. متشككة . ربما تصعر خدك وأشاح عنه .. فيحييك متغصبا متحفظا . لا يعطيك الريق الحلو حتى لا تطمع فيه . وقد تعلمت ذلك أنا أيضا ـ ولو متأخرا . فأحجمت عني أنا عن ذلك المخلوق الأجرب الذي جاء يحيك بي لعلي أعطيه قطعة من عشائي .. الذي ربما كان أفطاري أيضا . فمن يدري متى أتحصل على قرش آخر ؟

طفقت أدس يدي تحت أبطي وأقطع من السميدة لقمة القيها في فمي جلسة والحقها بسمة أخرى من الجبن ـ والعينان الدليلتان الجائعتان تتابعان كل حركة من يدي ... كل مضغة من شدقي . فشعرت بضيق . كنت جائعا لا أريد أن

يشاركني أحد طعامي ولو تمرد فطردته بقدمي . فانطرد . مشى خطوتين مرتعشتين ثم جلس .. بل انه ارتمى بلهث وقد تدلى لسانه كأنه آت من مشوار بعيد ورأسه على ذراعيه .. وعيناه مشيئتان بيدي وهي تسترق نظرة من السميذة وتلقيها في فمي .. ثم تبحث في جيبي الشمال برعة وتخرج بسعة من الجبن تلحقها بالسميذة .

واكلت نصف السميذة عندما طرق سمعي حديث بين كهلين لمحتهما بطرف عيني يمشيان متباعدين الى اريكة خلفي لم يجلسا مرتين قبلها .

كان احدهم يقول :

ـ « كانت الدنيا دنيا بحق ... زمان ! » .

فتنهد زميله :

ـ « هيه ... ايام ! » .

ـ « اتذكر الحاج « رفاعي » تاجر الحرير ؟ » .

ـ « اذكره ؟ الف رحمة تنزل عليه ! كان مولاي وولي نعمتي » .

كان كبير تجار زمانه ولا يباهي الا الشيخ « سويلم » !

فانطلق الآخر يهش تلك السيرة كأنها ذبابة :

ـ « دعنا من سيرته .. كان تاجر جميل ـ لقد كان على ثرائه الواسع بذيء اللسان لا يفهم ان المنافسة لا تستدعي الحط من كرامة منافسه ! »

[illegible] الكلام من جوفه ويمضغه كالبقرة المجتر :

ـ « معك الحق . ولكن ماذا تقول في النفوس أشد ما قاسى « الحاج رفاعي » من لسان « الشيخ سويلم » اتعرف حكايتهما ؟ » .

ـ « اعرفها ولكن قل .. تسلى ! »

ـ « كان « الحاج رفاعي » يقيم في حي الدرب الأحمر .. حي كبار القوم واثريائهم . وقد بنى جامعا فرشه بالبسط واناره بالشمعدانات واجرى عليه مالا . وكان يصلي فيه كلما وجد لديه الوقت . لكنه كان يحرص على صلاة الجمعة حرصه على عينيه . فاذا نودي للصلاة وجدته على رأس المصلين وما تنهى الفريضة حتى يمم وجهه شطر بيته وقد اصطحب معه امام الجامع ... ومقرئه .. ومن صلى عن يمينه .. ومن صلى عن شماله في يومه . ويجلسون .. خمستهم .. في صحن الدار امام صينية عامرة بما لذ وطاب ! » .

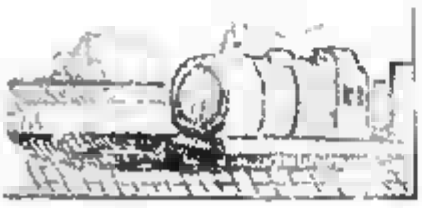

فقاطعه الكهل الآخر يلمظ عن فم اهتم مطبق :

ـ « عارف يا سيدى .. عارف ! لكم اكلت معه ، كنا نتقاتل على الصلاة على احد جانبيه .. ثم صرنا نتفق فيما بيننا على من يقع عليه الدور .. بل وصل بنا الأمر الى أننا كنا نسع دورنا بمبلغ لا بستهان به لنطامع فى التقرب الى كبير التجار الحرير ! » .

وسطر مجاز يتحدثون طريف للغاية . فات لا تكاد تجد فرقا يذكر فيه بين رجال ونساء . فالظاهر ان مع اوغل العمر تختفى فوارق الجنس فتتشابه السحن ... وتتجعد الابدان .. وتسهدل الشعر ابيض على الجنين واصدغين . والعجوز تجده يفضل ان يتكوم متربعا يطوى ساقيه ويجلس فوقهما وهو يلعلم ذيل جلبابه حوله بحرص دون وعى .. كانما يتم على ما سيخرج به من دنياه : كومة عظام ناشفة تغطيها خرقة من سمح . كذلك فعل عجوزانا تربعا فوق الأريكة ... تلك الليلة من شتاء « اسيوط » .. على طوار المحطة الضئيل النور . وكان كل منهما يعطى دماغه بكوفية لم يلفها كالعمامة بل اسدلها على جانبى راسه كالخمار . فلم يكن يميزهما عن امراتين عجوزين سوى شارب منوف وصوت اخشن ـ وان شاركت بعض العجوزات الرجال هاتين الصفتين ايضا .

وانا احب الحكايات . لم اكن كذلك فى شبابى . كنت اضيق بكثرة الكلام . لم يكن لدى الوقت .. ولا البال . لكننى الآن صرت احبها ... اعنى الحكايات . ارتددت طفلا لى بال طويل وشغف بسماع تفاصيل مطولة .. معقدة .. تلف بى .. وتدور .. قبل ان توصلنى الى نهاية القصة . فربعت على اريكتى الخشبية ذات الصلوع الصلدة . وشمرت بفرح خفى لأنى سأستمع لحكاية . فرقعت باصبعين اتادى الكلب الأجرب . فجاءنى مهرولا يجر ساقه التالفة . وربض عند قدمى مستانسا بعد أن رمانى بنظرة ممتنة . لكننى لم اعطه لقمة الى هنا ... ولا ! فالقى براسه على ذراعيه .. لا يأس قاطع .. بل بشىء من الأمل وقد خطا تلك الخطوة ، سمحت له بالجلوس قريبى ... فى دائرة تفوح فيها رائحة السمبذة .

اشرعت اذنى . فسمعت الكهل الأول يقول :

ـ « واستمرت المنافسة على اشدها بين التاجرين حتى كان يوما دخل فيه « الحاج رفاعى » مسجده فعاله ان لمح « الشيخ سويلم » بين المصلين . فلم يلبس بضعة بل احترم بيت الله . لكنه لم يعطه بقدم منذ ذلك اليوم . فلما سئل فى ذلك اجاب :

ـ « لقد دنسه كلب ! » .

وبلغت المداوة اشدها بين الرجلين الى ان سافر «الحاج رفاعى» الى «الحجاز» ليؤدى الفريضة للمرة السابعة . وقد جهزته نساء بيته بالزاد والزواد ورحل مع قافلة من قوافل الحجاج على ظهور الجمال وغاب ما يقرب من ستة أشهر »

فقاطعه زميله العجوز وهو يحك قفاه متلددا

ـ « عيه .. ؟ وبعد ؟ » .

فاستطرد الآخر وهو يدلك قدميه في بحبوحة وبلا أدنى عجلة كأنما يمتد الوقت أمامهما فسيحا ... بلا نهاية .. ساعات .. أياما .. بل عمرا بحاله

ـ « سألتني يا سيد . استراح « الحاج رفاعي » يوما في داره ثم قام يلف على أهل البيت في أضرحتهم بلو الفاتحة ويوزع الصدقات . وركب عربته التي يجرها روح من الخيل « المكوكو » الأصيل سار يتخير بخطوات مريحة بشوارع والحواري . حتى اذا وصل الى ضريح « السيدة » لمح الحاج عدا وقورا وقد اتخذ زاوية ووضع أمامه مقعدة صغيرة عليها صحون مترعة بالمهلبية .

فاضطرب قلب « الحاج رفاعي » ولم يصدق عينيه . فهبط من عربته مهرولا ووقف في صف المشترين حتى اذا واجه العبد وتحقق منه صاح :

ـ « مرجان أفا ! » ـ

فارتعشت الشفة السوداء وصاحبها ينكس رأسه ويغمغم في صوت كسير :

ـ « نعم يا سيدي ... أنا ! » .

فمأتا الرجل .. وقلبه يراجم لسانه

ـ « ومادا ... مادا تفعل هنا ؟ كيف .. آه كيف تقف تلك الوقفة ؟ » .

فرفع الزنجي عينين بائستين الى وجه « الحاج رفاعي » :

ـ « أبيع مهلبيه تطعوها سيدي لتعيش من ثمنها ! » وهز رأسه بخيبة الأسى الحائر الذي غشى وجه الحاج .. وقال في صوت متهدج

ـ « نعم مات .. مات سيدي « الشيخ سويلم » وبلعت الذئاب أمواله ! » .

فانقض « الحاج رفاعي » على جيوبه ينتزع منها بايد تنقض ما دسه فيها من أكياس جلدية وألقاها على صينية « الأفا » .. ثم سحبه من ذراعه ودفع به داخل عربته .

والهب الحوذي ظهور الجياد .

فالتفت الزنجي الى « الحاج رفاعي » الجالس جنبه يحملق أمامه ويكاد يخنق بمشاعره . وهمس

ـ « سيدى ... ان دموعك لتساقط من دهشك ! » .

لم اسمع أنا أكثر من ذلك . فقد انتهت الحكاية ـ على ما اعتقد .

فتسمرت مكاني اتامل الكلب الأجرب ... وافكر في اولادي وعيالهم فعشيني نشوة .. أي والله .. نشوة ترحف على بدني .. وعقلي .. وقلبي كأني انا ذلك التاجر ـ نشوة عجيبة منعشة كأنها سحابة خيرة جيدة مثقلة

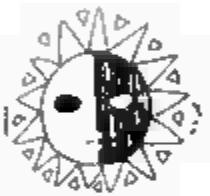

بالماء ترحف حثيثا وتكنس أمامها ركام الأتربة التي تملأ الجو .. وتعبق القلوب ... وتطبق على الصدور !

فسحبت بقية السميدة من تحت ابطي وألقيتها بسهامة الى صديقي الأجرب . فهوى عليها يختطفها بكلتا ذراعيه ويميل فيها اسنانه نهشا وقضما وبدنه يرتعش من لهفة .

وجاء القطار . جاء يصفر ويعفر

فهرولت اراحم الخلق بعصاي ومرفقي . والقيت بلفة ثيابي من النافذة وتسلقت خلفها .

ووقف القطار بلهث ويلتقط انفاسه وقلبه يدوي بعنف . واسقوه ماء كثيرا حتى ابترد ـ فرعق بصوت مبحوح يعلن استعداده لمواصلة الرحلة .

فراجعت أنا مرة أخرى ... داخل العربة ... الحالمين والواقفين .. ادفع هذا .. واجلب ذلك ـ لا لأجد لي مكانا بل لأصل الى الشباك اطل منه على صديقي ... الكلب .

وتراجعت عن الشباك ... ومشى القطار .. وانا ابتسم بهناء ... والأمل يملؤني .. والدنيا حولي تتراقص فيها الفرص . ساجد عملا وسقفا فوق راسي ... وساملأ بطني طعاما بل اني .. نعم نعم .. سأرسل نقودا الى « البلد » كلما احتاج احد اولادي وطلب مني . فتحسن الأمور .. لابد .. امور كل الناس .. كلهم كلهم !

فدسست يدي في جيب سروالي المرقع .. ودفعت بطربوشي الكالح فوق جبهتي وانا اصفر بفمي صفيرا مرحا ..

فقد رايت الكلب يهز ذيله !